بداية تجربة في مقاومة التهميش / بلدية كفرشوبا

قاسم القادري

التهميش هو عملية نبذ نحو الجوانب، فعل طرد وإبعاد أو ابتعاد عن القلب والمركز، هو تنحية عن مسيرة أو مشروع وإخراج من دائرة الخطط والتركيز والاهتمام. والتهميش بهذا المعنى، قد يأتي من خارج المرء، رغمًا عنه، ودون إرادة صاحبه، وقد يأتي من الداخل بسبب عقلية أو سلوك أو خيار، بفعل ظروف معينة. وعندما يجتمع الداخل والخارج يشتد التهميش، ويتضاعف، خصوصًا عندما تبتعد الهوامش جغرافيًّا عن المركز.

التهميش على المستوى الجغرافي

كان هذا تاريخيًّا حال بلدة كفرشوبا الواقعة عند الطرف الجنوبي الشرقي للبنان، في منطقة العرقوب الواقعة عند سفوح جبل حرمون الجنوبية الغربية، ترتفع ما يزيد عن الألف متر عن سطح البحر، وتبعد ما يزيد عن مئة كلم عن العاصمة بيروت، لا يصلها إلّا قاصدها، طبيعتها جبلية قاسية، طرقها وعرة وغير مؤهلة، تعزلها الأمطار والثلوج عدة مرات في السنة. وتعزلها طبيعتها الوعرة عن الوطن بشكل عام وحتى عن القرى المجاورة. معظم سكانها يعيش من الزراعة ومن رعي الماشية. بقيت هذه البلدة حتى أواسط الستينيات من القرن الماضي من دون طرق معبدة تصلها بالخارج، ومن دون مياه شرب، وتفتقر إلى الكهرباء والهاتف، ومدرستها تقتصر على الصفوف الابتدائية. إن تهميشها على صعيد الخدمات الأولية جعل ارتباطها بالوطن ضعيفًا جدًّا، فكانت أبرز الوظائف المتاحة أمام أبنائها الانخراط في صفوف الجيش.

كذلك كانت البلدة ومحيطها، منذ الاستقلال وحتى أواسط الستينيات، خارج إطار النظام الأمني اللبناني، إذ كان الجزء الجنوبي الشرقي من العرقوب يخضع للسيطرة الأمنية السورية، فكانت المخافر السورية في مزرعتي زبدين وبرغتا (من مزارع شبعا)، تبت في النزاعات، وتنظم المحاضر، وتصدر العقوبات بحق المخالفين من الرعاة والمزارعين من سكان المنطقة.

ومنذ العام 1965 لغاية 1978، لم تعانِ المنطقة فقط من التهميش السياسي والأمني والخدماتي، بل من غياب الدولة أصلًا، إذ وقعت في أعقاب اتفاق القاهرة تحت هيمنة المقاومة الفلسطينية بمختلف فصائلها، وتحولت إلى مسرح للأعمال الحربية، فقامت إسرائيل بتدمير بيوتها وإتلاف مزوعاتها وتهجير سكانها. ووصل التهميش إلى ذروته مع وقوع المنطقة تحت الاحتلال الصهيوني والمليشيات المرتبطة به. فعاقب الاحتلال أهالي البلدة على مواقفهم القومية والوطنية، وعلى عدم تعاونهم معه.

وعلى الرغم من التحرير في العام 2000 وعودة الجنوب إلى حضن الوطن، إلَّا أن المنطقة التي تضم مزارع شبعا وتلال كفرشوبا وسفوح جبل الشيخ الغربية بقيت تحت الاحتلال، وبدأت الحملة الإعلامية حول مزارع شبعا وهويتها وجغرافيتها، متجاهلة مناطق أخرى تابعة للبلدة لأغراض سياسية واستراتيجية لا مجال للحديث عنها هنا.

مقاومة التهميش والبحث عن بدائل: نتيجة تهميش الدولة للبلدة على صعيد الأمن والخدمات والوظائف، كانت كفرشوبا تتحدى سياسة التجاهل والحرمان والإذلال، وتلعب دورًا هامًّا في إبراز السلطة الوطنية البديلة التي وجدت في المقاومة الفلسطينية سندًا لها يعوض غياب الدولة في المجالات الأمنية والاقتصادية والاجتماعية، وأخذت البلدة المنسية والمحرومة والمقصوفة تتصدر الأخبار المحلية والعالمية، وتحظى باهتمام مختلف الأوساط المحلية والعربية.

إن الشعور الكبير والمزمن بالتمييز والتجاهل والتهميش، أشعر أبناء البلدة أنهم خارج الطوائف وأنهم مهمشون حتى داخل المذهب الذي ينتمون إليه، وهذا ما دفعهم إلى التمرد والتحدي، فوقوع البلدة في قبضة الاحتلال الصهيوني في نهاية السبعينيات شتّت أبناءها، وقلّص عدد المقيمين فيها إلى السدس، وأفقدها دورها الذي كانت تتمع به في الستينيات والسبعينيات. وبعد التحرير كان الأمل في إعادة إعمار المنطقة، واستعادة دورها كبيرًا، وسرعان ما تبخّرت الأحلام، واستمر الحرمان واشتد، وازدادت الهجرة من البلدة لعدم توفر فرص عمل، وخراب الزراعة، وغياب الخطط الإنمائية، وعدم وجود الجامعات وضعف الخدمات، وغياب وسائل الترفيه، إضافة إلى انعدام الثقة بالطبقة السياسية وبروز أمراض التعصب والانقسام.

في ظل هذا المناخ من الحرمان والتوتر، والتباعد بين أبناء البلدة الواحدة وأحيانًا العائلة الواحدة، حاول المجلس البلدي مد الجسور مع مختلف الأطراف في الداخل والخارج، واقفًا على مسافة واحدة من القوى السياسية المتخاصمة. واستغل فترة المونديال، فنصب شاشة عملاقة في ساحة البلدة، ما أتاح لعشاق الرياضة من مشارب مختلفة الجلوس معًا ونسيان النزاعات الحزبية واستبدالها بتعاطف وتأييد لهذا الفريق أو ذاك. فوجد الكثير من المتخاصمين في السياسة أنفسهم مؤيدين

للفريق الرياضي نفسه. بعد نجاح هذه الخطوة التي عززت التواصل بين أبناء البلدة، عمد المجلس البلدي إلى إقامة مهرجان قروي فني في صيف كل عام بإمكانيات قوامها التبرعات والعمل التطوعي، وتجلى نجاح هذه المهرجانات بأنه جمع الآلاف من أبناء البلدة المشتتين هنا وهناك، ومنهم من أتى للبلدة للمرة الأولى، ومنهم من لم يأت منذ زمن بعيد. إذ تلاقى الجميع في مهرجان فرح، كاسرين طوق العزلة والتقوقع والتهميش، على الصعيدين الفردي والجماعي، وسمح للمزارعين ولأصحاب الحوانيت بيع منتوجاتهم وبضائعهم، وتعرفت الأجيال الجديدة على تراث القرية وعاداتها وتقاليدها، وأتيح للعديد منهم إبراز مواهبهم ومهاراتهم. وعمل المجلس على إشراك البلدة في البرنامج التراثي المتلفز الذي تنظمة محطة «أو تي في» «لاقونا على الساحة» وكان بمثابة مباراة بين البلدة وبين بلدة برجا. وحلَ الحماس الرياضي الممتع للفريق المشارك محل الحماس السياسي الكيدي والعدائي. كذلك اعتمد تقليدًا بتخصيص يوم من كل عام لتذكر شهداء البلدة تقديرًا لتضحياتهم وعطاءاتهم.

ولم يعمل المجلس البلدي فقط على فك عزلة الناس بعضهم عن البعض الآخر، بل عمد أيضًا إلى فك عزلة القرية عن محيطها، فبادر إلى الانضمام إلى اتحاد بلديات العرقوب، مقيمًا معها علاقات إخاء وتضامن عابرة للمذاهب والطوائف، فبادر في عيد الميلاد إلى تنظيم احتفال شعبي بين البلدة وبين جارتها راشيا الفخار، ما ترك أثرًا طيبًا بين أبناء البلدتين.

كذلك وسع المجلس من إطار نشاطاته فبنى علاقات ودية مع قوات الطوارىء الدولية، ما أتاح للقوات الهندية والإسبانية المشاركة في المهرجان القروي، معرفين أبناء البلدة على نماذج من ثقافتهم وتراثهم الشعبي. مكَّن هذا التفاعل المجلس من الحصول من قوات الطوارىء على ثلاثة مشاريع في غضون سنة ونصف: مولد كهربائي، عيادة لطب الأسنان، وتأهيل منهل المياه وبناء خزان عليه لاستثمار مياهه.

وعمل المجلس على تحفيز الأهالي للمشاركة في حملات النظافة والتشجير، وشجع البنائين والعمال وأصحاب الحفارات والجرافات على تنفيذ العديد من الأشغال بأسعار رمزية. فقام هؤلاء بتوسيع المدخل الشمالي للقرية وكشف المنعطفات المخفية والخطرة. كذلك عمل على توسيع الطرقات وبناء جدران معتمدًا ليس فقط على مجلس الجنوب إنما على مساعدات نتيجة علاقات طيبة بناها مع تنظيمات وأحزاب محلية، ومبادرات فردية من أبناء البلدة. على سبيل المثال، بعد تدشين الثانوية التي بناها مجلس الجنوب في البلدة، تقاعست شركة الكهرباء عن إيصال الكهرباء إليها بدعوى عدم توفر الأعمدة والكابلات لديها، ما دفع المجلس لإنجاز هذه المهمة بإمكاناته المتواضعة، باحثًا عن أعمدة قديمة عمل

على توصيلها ونصبها، وتوصيل الكابلات المنتظرة، مسرعًا في إيصال الكهرباء إلى مبنى الثانوية. كذلك تكرر المشهد عينه في موضوع إيصال المياه.

ويقوم المجلس البلدي حاليًّا بإنشاء حديقة عند أحد مداخل البلدة، حاصلًا على مساهمة رمزية من إحدى منظمات الأمم المتحدة الإنمائية UNDP. وسيبدأ في الأشهر القادمة بناء المركز الثقافي بتبرع من المملكة العربية السعودية، وأنشىء نادي السلام الرياضي، ويجري العمل على إنشاء موقع إلكتروني للبلدة.

هذه عينة من نشاطات المجلس البلدي خلال سنة ونصف، الهادفة إلى مقاومة التهميش والحرمان، ورفع الغبن الذي لحق بالبلدة خلال العقود السابقة، وهذا يثبت أن التهميش ليس قدرًا لا يمكن رده والتغلب عليه، وأنه قد يأتي من الذات المستكينة المتقوقعة، التي تلجأ إلى اللوم وتحميل المسؤولية للآخرين، والتفتيش عن التبريرات التي تغطي التقصير والقصور. بالوعي والتخطيط، بالحركة والحيوية وابتكار الوسائل والبحث عن البدائل، والانفتاح على الجميع يمكن مقاومة التهميش والتغلّب عليه.